

قلب الحبل

منه الفصحى الرباطي

بقلم الأستاذ محمد الخفيف

الشقاء ؛ لقد نجحت
أمه فيما ذهبت إليه ،
واقدم هو لها جبل
عليه من الكسل عن
مقاومة أغراضها ، كما
خذت عزيمته فلم

يستطع أن يتولى بنفسه شؤون نفسه ؛ وكان قليل الثقة
بكفايته أو بقدرة على تنفيذ شيء ، وراحت الأم
تنصح له حيناً رآته مقبلاً على مواجهة الحياة ؛ وكثيراً
ما ابتدرته بقولها : اتخذ يابني من (إيرين) زوجاً لك .
إنها الزوجة التي خلقت لك ، بل إنها المرأة الوحيدة
التي تستطيع أن تجعلها شريكاً حياتك . نعم إنها
ليست فارحة الجمال ولكنها جادة مجدة ... كذلك
ليست باثيرة وإن لم تكن فقيرة ، وأظنك لا يمكن
أن ترى في زواجك إلى المال . إنها ستحفظ لك
بيناً طيباً وتعنى بتربية أطفالك ؛ وما عسى أن تطالب
فوق ذلك ؟ إن مما لا يحمد لك أن تشايع خيالك
وأحلامك إلى ذلك الشيء الذي تسميه ... »

على أنه في الواقع لم يشايع أحلاماً أو يساير
خيالاً قط . وقد تزوج من إيرين ليرضى بذلك أمه .
ثم أخذ يوطن نفسه على أن يألف هذا الضرب من
السعادة التي أشارت إليها

والكنها كانت سعادة فائرة مصفارة كادية ؛ على
أن أمه كانت تعلم حق العلم ماذا تعنى بقولها حينما
أشارت إلى الخيال والأحلام ، فكان حلم جوجيلمو
هو ابنة عمته آن ، وقد تزوجت تلك العمّة من رجل
غني من رجال الأعمال . وكان جوجيلمو يتردد
على منزل عمته وهو غلام ، ولكنه حينما طار شاربه
حالت بينه وبين ذهابه إلى حيث كانت تقيم آن

سمع جوجيلمو
رنين الجرس مؤذناً
بذخول شخص ، كما
سمع حديثاً في الجو ،
ولكنه لم يتحرك .
ومن عسى أن يكون

ذلك الشخص ؟ أهو صبي الصيدلي ؟ أهو الخباز ؟
أم هي الخادمة ... ؟ إنه ليعرف تفاصيل حياته البسيطة
المملولة معرفة خبرة ووثوق وهو في حجرته المأوى ،
حجرة دراسته يسمع من الأصوات كل يوم ما يستدل
به على ما يجري حوله من شؤون الحياة ؛ ولقد ألف
تلك الأصوات الرتيبة أمة تامة ، حتى إن ما حدث
في ذلك اليوم من أمور جديدة قد اتخذ في ذهنه
صورة ما ألف من قبل كأنه رآه بالأمس ، ولذلك لم
يثر في نفسه اهتماماً خاصاً . فهناك الصيدلي مثلاً ،
وهو رجل حديث مقدمه ولله الحمد فلا يدري من
الأمور شيئاً ، ولن يستطيع أن يحجز الأمور عن
وجهتها . وراح صاحبا يتحدث نفسه : « ستأتي
هنا بعد برهة السنيورا أكاردي ثم يأتي الطبيب ؛
وبعد ذلك يتزايد غمر الجرس فترة ، ثم في ساعة
أو ساعتين ينتهي كل شيء . كأن لم يكن هناك شيء . »
والكي يهدد لهفته ، فتج كتاباً وحول إليه
بصره ، منصرفاً عن النظر إلى حديقته الصغيرة
التي جدد الربيع خضرتها يومئذ ؛ وكانت حجرة
دراسته حياته محدودة متواضعة ، ولقد أبحه فكره
وهو يقرأ إلى تلك الحياة

زوج في الخامسة والعشرين وهو الآن في
الثلاثين ... خمسة أعوام من الوجود الذي لا يميزه
شيء ، خمسة أعوام لا هي إلى السعادة ولا هي إلى

الوجود بأنفس جديدة هي التي زادت حيوية ونشاطا
أنت سريعا على قدر ما استطعت ... ما حالها؟
بخير ... هون عليك لا تضطرب ، لو كنت مكانك
لخرجت من المنزل برهة أو جلست هادئا في حجرتي ،
سأعود إليك بعد ساعة أو ساعتين وأطامك على
جاية الأمر »

وابتسم الطبيب ثم دخل حجرة المريضة ورجع
صاحبه الى حجرتة . وقد فكر بعد برهة في الخروج
من المنزل ، ولكن دافعا خفيا لم يتبينه ، دافعا
مكونا من الخوف من جهة ، ومن توقع ما يسر من
جهة أخرى ، أقعده عن الخروج ، فلبث في مكانه
مفكرا ، ولكن أفكاره القديمة لم تلبث أن عاودته ؛
وكان عجبا أن تعاوده في الساعة التي يرى فيها وجوده
يتصل بالمستقبل في حياة وايدة المنتظر ، فتقذف به
في أعماق الماضي خطوة بعد خطوة

وما كان الماضي غير آن ... آن دائما ... آن واسمها
وذاتها وكل ما عمت بصلة اليها

لقد رآها مرات بعد زواجه ، ووجد أنها
لم تتزوج حتى ذلك الوقت احتفاظا بحجرتها ،
كما اعتاد أن يسميها تقول ذلك ضاحكة . وهي
الآن في السابعة والعشرين لا تزال كما عهدتها من
قبل مرحلة مرهقة . وكانت تزور بيته بين حين
 وآخر حيث اتصت أسباب الودة بينها وبين
إيرين ؛ على أنها لم تكن تكثير من الحديث معه وكان
قصارى ما تبديه نحوه من الملاطفة ابتسامة أو اثنتين ،
ثم تمد يدها اليه فتصافحه مصافحة الأصدقاء وتنطق
في سبيلها

وكان يعتقد جوجليليو أن أمه أخطأت التقدير ،

وساوس عمته ، وما كان بين المنزلين من فرق كبير
في الثراء . نعم كان حلم جوجليليو هو تلك الفتاة
الجميلة الطويلة المشوقة الفسد التي ينبعث العطر
دائما من ثيابها ، ذلك الحلم الذي جاهدت أمه في
تبديده ... « وماذا كانت تنتظر آن من رجل
مثله ؟ تتزوج منه !! يا إله الناس إنها تنظر الى ما هو
أبعد من ذلك ... تحبه ؟ ألم يتبين أنها كانت أبدا
تمتع نفسها دون أن تعيره التفاتة أو تنجبه لحظة
بفكرها إليه ؟ »

وكانت تلك الكلمات كفيلة بالقضاء على حلمه
الجميل . وهكذا تزوج من إيرين ؛ والآن بعد سنين
من السعادة الهزيلة الفاترة ترى إيرين موشكة أن
تنجب غلاما . ولم يقابل جوجليليو ذلك أول الأمر
بكثير من الحماس إذ رأى الزمن يأتي له بشخص
آخر يحول بينه وبين الأحلام ، ولكنه أحس
بقلبه يعتلي بالغبطة كلما تصرمت الشهور . ولد ؟
وما الولد ! أليس هو الشيء الوحيد الذي يعمل
وجودنا ؟ ثم إنه يرى فيه خير منحة بعد ما لاقاه
في ماضى أيامه من أشجان وآلام ، وأحسن عوض
عما فقد من الحب والسعادة

سهر من مكانه هذه المرة وترك حجرتة وأنى
نفسه في المر ؛ وهناك سطمت في أنفه رائحة العقاقير
المنبثة من حجرة زوجته ؛ ولو أنه أنصت لسمع
أنينها ، ولكن صوتا قويا هادئا قطع عليه نيار
فكرهم فجأة ... « هاأذا أنت ، هاأذا » وكان
ذلك هو الطبيب رفيق صباه الذي كثيرا ما تردد على
منزله . كان يدينا مرحا مشبع الوجه من الحرة .
ولعل وظيفته هذه التي كانت تنحصر في إمداد

« أنت في حاجة الى شيء ؟ هل أستطيع أن أجعل من وجودي فائدة لك ؟ »

وحاء دوره الآن ليحيب ، فان دائرة صمهما قد اتسعت حتى تركتهما حائرين ؛ وخيل الى كليهما كأنه يستمع الى صوت الآخر ، وكأنهما عادت اليهما ذكرى عبارات قيات من قبل ولكنها نسيت الآن أو امتلأ بها الفكر ، ولكن لم يتحرك قط بها اللسان

وأخيراً قطع جوجليلو هذا السكون فجأة بسؤال غريب ، ظهر أكثر غرابة لصدوره من شخص خجول مثله ؛ ولقد كانت وقعه على آن كقبلة لم يحسن أدائها :

« أنت جميلة كاملة يا آن ... لماذا لم تتزوجي حتى الآن ؟ »

ولقد ألهم خدائها من الخجل ، بل لقد ظهر وجهها كله والجزء العاري من عنقها تحت الفراء مشبوب الحمرة ، ولكنها حاولت أن تبتسم لتخفي تلك السحابة التي أظلمت في عينيها

« فم تفكر الآن يا جوجليلو ؟ لقد بقيت عذراء لأنه ... لأنني لم أجداً أحداً يحطبنى ... »

ونحك جوجليلو بدوره ضحكة من قلبه . لم نجدى أحداً ؛ ياغبيا ؛ إن وراءها من عشاق الشباب ما يفوق عددهم عدد من يتوددون الى جميع فتيات المدينة مجتمعات

« من أنباك هذا ؟ »

« أنبأني به أمي »

« إن أمك لم تدر من أمر هذه المسألة شيئاً ... ولكن إذا فلتقل إلى أقسمت قسماً » وأخذت

اذ لم تكن آن كما اتضح له في شيء مما تصوره من الزهو والكبرياء . ولكنها في الحق لم تكن امرأة عاطفة

هل زاد عدد الناس في الردهة ؟ لقد سمع جوجليلو صوت شخص يكلم الخادمة في همس . ولقد جعله هذا الصوت يتفرض في مكانه ، ثم فتح باب حجرتة وظهرت له رأس لطيف

« أنها أنا يا جوجليلو ، أتأذن لي بالدخول ؟ ونظر جوجليلو الى القمطر في اختلاجة غريبة لم يستطع اخفاءها ، وكأنها كان يجب أن يغيب أفكاره في ذلك القمطر ، فافقد كانت اختلاجة عينه كاختلاجة من يرى متابسا بجرعة ؛ ولكن آن تقدمت نحوه في هدوء وهيئون

« لقد جئت لأسأل ما حال إيرين الآن » وبدا على جوجليلو أنه شارد اللب الى حد أنها نظرت اليه نظرة عطف قائلة :

« جوجليلو أيها المسكين ما أراك لا حائراً ... » ورد صاحبها مقمئاً : « لا . فالطبيب عندها » ولم تلبث أن التفتت في رأسه فجأة أفكاره حول هذه الأنسة التي يراها الآن تظهر اهتمامها بأصريت بصلة الى الحب والحياة ، فزادته تلك الأفكار ارتباكاً واختلس نظرة الى جسم آن البض الجميل ، ذلك الجسم الذي رآه قد هيأ أحسن تهينة لحمل الأجنة « إجلسي لدى برهة يا آن ... فاني أحمد لك مجيئك الساعة »

وسمعت لصوته زبرات غريبة ، وتغير تغيراً عجيباً كما تتغير الموسيقى بتغيير اللحن . ونظرت اليه آن في دهش وظلت صامته برهة ثم سألته :

إليه كأنه يرى الواقع شاخصاً أمامه يسأله : « ألا تفهم ؟ »

لا . إنه لم يفهم . لقد أسلم قياده بالأمس ورفض أن يقوده ضلال أمه . وهكذا ألقي نفسه على شفا منحدر لم يجد بداً من النزول إلى قراره . والآن يرى الماضي في ضوءه الحقيقي . ويرى الآن أنه حينما كان يكتر من الذهاب يرى أن كان وجهها يتهلل بشراً وفرحاً ، وأنه حينما كان يغيب عنها كانت ترى مكتئبة لذلك . وأعقب ذلك مرضها ؛ ثم توالى السنوات التي أغفل فيها أمرها ، فلم تبدأ من أن ترفض في عناد أن تتزوج من غيره ولكن لم ظلت ساكنة لا تخبره عن شيء ؟ أكان في ذلك جرح لكبريائها ؛ أم هل كانت تخشى المذلة لا . إنها لم تفكر في شيء من هذا ..

والآن ؟ هذا البوح المبالغ ... واحرار وجهها من الحجل ... ويدها الرتمدة ... ألا إنها لا تزال تحبه ... وحدثته نفسه قائلة « لا ليس هذا ممكناً » ولكن قلبه كان ينهض بين جنبيه عما يؤكد الغريزة . كان ذلك كذلك ؛ كان ذلك كذلك ...

وبينا هو كذلك إذ دوت في أرجاء المنزل صرخة ألم قطعت عليه تيار أفكاره وأعادته ثانية إلى حقائق الحياة ، إلى الواقع الذي لا يشوبه خيال ؛ ففي تلك اللحظة أوشك أن يولد له غلام ، وهو قطعة منه تتدبها حياته في سجل الوجود وتتصل بالمستقبل ، فعجب كيف يحزن على ما قاله من سمادة الحب بينما هو مقبل على رؤية ابن له . وأي سرور أعظم من أن يرى المرء فائدة من كبده بين يديه ؟ ولكن آن ... آن

آن تضحك ثانية واسكنه كان فحكا تخالطه الحيرة « قسماً ؟ ولسكننا حينما كنا صغيرين نلذ بمعا

كفت دائماً ترى أن الشخص الآخر ... »

« والسكن المرء بقسم بعد ذلك »

« ومتى كان قسمك ؟ »

« لا أذكر ذلك تماماً ... وإنما أظنه منذ

خمس أعوام أو ستة ... »

« حينما تزوجت أما ... أنعمين ذلك ؟ »

وهنا صمتت الفتاة ، وبدأت عليها أمارات الارتياب وعضت على شفتيها ، إذ تبينت أن ما قالت به هو الغباء بعينه

آه . نعم . أذكر أنك كنت مريضة تلك

السنة ... ولم يكن يعلم أحد ما حقيقة الأمر ...

أذكر ذلك - كنت وإيرين في سويسرا ...

وسمعت بذلك بعد حين ... « فهل » وتساءل باسمًا

« فهل كان عزمك وقسمك يومئذ ؟ »

« إلى اللقاء يا جوجاييلو ... إلى ذاهبة

وسأجيء ثانية ... أرجو أن تدعوني « بالتليفون »

وتخبرني ما يكون من أمر إيرين »

« نعم سأخبرك . ألا تصالحيني ؟ »

« ها هي ذي يدي إذا »

مدت إليه يدها فبرزها مطبلاً ذلك على غير

إرادته . ما ذاك ؟ لم كانت يدها هكذا ترنم ؟

ولما شد عليها بعد ذلك أكثر خيل إليه وقد

خالجه شعور مبالغ كما لو أنها أسلمت نفسها إليه

منهزمة ...

ألقي نفسه وحيداً ، ولكن العجب والرعب

استوليا عليه مما جرؤ على قوله أو التفكير فيه ، وخيل

سعادة قلبه من الحب . سيتغير كل شيء ، وسيستجدد كل شيء . . . نعم سيجعل محل تلك السعادة الهزيلة الفاترة سعادة رائحة ماضرة ، سعادة تحقق كل ما تصبو نفسه إليه . إذا ماتت إيرين فسيأخذ آن زوجته . ليس أمامه إلا أن يختار الآن . ومن ذا يلومه ؟ أليس يسير وفق قوانين الحياة ، وما تقتضيه غريزة النوع الانساني ؟

وصاح جوجاليكو متأوهاً : « يا إله السماء ! »
وحدثه قلبه ملاحاً : « انت لا تحب زوجك .
وإذا بقيت فسوف تمضي السنون وأنت تعيش مع امرأة لا ترى للحياة معنى إلى جانبها . فسكر مرة ثانية كيف فقدت المرأة الأخرى ... وكيف كان ذلك نتيجة جهلك وضعفك ... هيا هيا كلمتان ... انطق ... أترى الأمر هكذا صعباً ؟
انطق أيها الأحمق الغبي وقل : « نيج الوليد »
ولكنه رفع رأسه ، وعلى وجهه صفرة خفيفة ووجه الخطاب إلى الطبيب قائلاً في ثبات :
« نيج الأم »

الطبيب

الجليلة الساحرة ؟ إن طيفها يملأ ناظره ، وسحرتها يشيع في نفسه . ياله من موقف ! إنه يرى نفسه بين سعادتين : سعادة أفلتت منه وصارت من تراث الماضي وذكرياته ، وسعادة توشك أن تحيط به ، فيمتلئ قلبه بهجة . ولكن ... ولكن ألا يمكن أن يكون منهما مزيج فتكمل أحدهما الأخرى ؟
نادى الطبيب جوجاليكو ووقف أمامه مصفراً مضطرباً : وقفز جوجاليكو متسائلاً في لهفة :

« ماذا حدث ؟ هل في الأمر شيء ؟ أجبتني ! »
« نعم ، يؤلمني أن أجيبك أن الخطر محقق بها فافقد طرات مضاعفات من حيث لا أدري ، ولكن لا يزال هناك أمل ، أمل بتأخير فيما تستطيع الجراحة أن تفعل . لقد رأيت الواجب بقضي على أن أخبرك ... »

تخبر جوجاليكو وفكر في زوجه ، تلك المرأة المسكينة التي تجود بحياتها في عذاب وألم ، وأردف الطبيب قائلاً :

« هل لك أنت نجيبني عما أسألك عنه ؟ إن ضميرك هو الذي يريك الآن ماذا يجب أن تفعل إذا كان لا يمكنني إلا إنقاذ أحدهما : الأم أو الوليد . فمن تختار ؟ »

« ماذا ؟ » « ماذا تقول ؟ » هكذا راح جوجاليكو يتساءل صارخاً وعلى وجهه صفرة كصفرة الموت فقال الطبيب : « تلك هي الحقيقة ، فلا يستطيع العلم أن ينجي الاثنين معاً ؛ فاما الأم وإما الوليد . فذكر برهة ثم أخبرني ... »

« نظر جوجاليكو نظرة فرأى حياته الجديدة جليلة أمامه ، تلك الحياة التي ساقها إليه القدر : ولد هو وأمله في الحياة وغابته من الوجود ، ثم آن وهي

آلام فرتر

لشاعر الفيلسوف جوتة الألماني

الطبعة الرابعة

ترجمها أحمد محمد الزيات

وهي قصة عالية تمد بحق من آثار الفن الخالد
وتنمها ١٥ قرشاً